محاضرة بعنوان:

إسرائيل الكبرى في الفكر الديني:

Greater Israel in religious thought

المادة : التاريخ القديم
المرحلة : الأولى

إعداد:

م. د. مجيد جاسم محمد أحمد الشعيبي

أستاذ تاريخ الأديان – رئاسة جامعة الأنبار

كلية التربية للبنات

لا يكاد المرء يقول – يهود – حتى تختلط الأمور بحق. وسامع الكلمة أو قارئها معذور متى اختلطت الأمور عليه وتاه عقله في الضباب الفكري الذي تجره إليه وتتركه فيه. فالكلمة تتحدث عن أقوام وأحداث ما أبعد الشقة بين الآن والماضي السحيق من الزمان الذي عاشت فيه تلك الأقوام، ووقعت تلك الأحداث فيه، وما أفعل الخلط الذي لم يتوقف طوال تلك الأزمنة بين اللغة والعرق، وبين العرق والدين.

لقد اتسمت حياة اليهود في مختلف العصور، وفي جميع المواطن التي عاشوا فيها بقدر كبير من العزلة النفسية ومحاولة عدم الاندماج مع أبناء الأمم الأخرى. ولم يكن مردود هذه العزلة إلى تعصب أو تحامل أبناء هذه الأمم ضد اليهود، وإنما كان مرده إلى التعاليم الدينية اليهودية تجاه الأمم الأخرى التي تنطلق من قاعدة منصوص عليها في التوراة والواردة في (سفر اللاويين/ ٢٠-٢٣) والتي تقول:

וְלֹא תֵלְכוּ בְּחֻקֹּת הַגּוֹי, אֲשֶׁר-אֲנִי מְשַׁלֵּחַ מִפְּנֵיכֶם:כִּי אֶת-כָּל-אֵלֶּה עָשׂוּ, וָאָקֵץ בָּם.

"ولا تسلكون في رسوم الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم لأنهم قد فعلوا كل هذه فكرهتهم".

إن تطبيق هذه القاعدة التوراتية- كان يتطلب من اليهود عدم التفاعل مع الأقوام التي يعيشون معها كي يحافظوا على عاداتهم وتقاليدهم الخاصة. وبذلك قد أقاموا سوراً يحاول أن يفصل بينهم وبين هذه الأقوام.

وعلى أية حال، فقد حرص اليهود على أن تظل كلمة (إسرائيل الكبرى) تعبيراً غامضاً إلا أن تتبع مصادرهم العقيدية ومخططاتهم السياسية سرعان ما يكشف ذلك الغموض. فإسرائيل الكبرى ليست هي بيت المقدس فقط، ولا أرض الشام فحسب – بل هي أكبر من ذلك. فهي

الدولة الوحيدة في العالم التي لا توضح حدودها لاعتبارات إستراتيجية أو دينية، على اعتبار إن أي موقع ورد ذكره في التوراة هو ضمن حدود الدولة.

فهم ينسبون إلى التوراة هذا النص الموجه إلى إبراهيم، عندما قرر اعتزال أبيه وقومه. وكما ورد ذلك في (سفر التكوين/ ١٢: ١-٣):

"וַיֹּאמֶר יְהוָה אֶל-אַבְרָם, לֶךְ-לְךָ מֵאַרְצְךָ וּמִמּוֹלַדְתְּךָ וּמִבֵּית אָבִיךָ, אֶל-הָאָרֶץ, אֲשֶׁר אַרְאֶךָּ וְאֶעֶשְׂךָ, לְגוֹי גָּדוֹל, וַאֲבָרֶכְךָ, וַאֲגַדְּלָה שְׁמֶךָ; וֶהְיֵה, בְּרָכָה וַאֲבָרְכָה, מְבָרְכֶיךָ, וּמְקַלֶּלְךָ, אָאֹר; וְנִבְרְכוּ בְךָ, כֹּל מִשְׁפְּחֹת הָאֲדָמָה.

"وقال الرب لإبرام (إبراهيم) أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أُريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك ولا عنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض".

أما حدود هذه الأرض فتدل عليه نصوص أخرى. فقد ورد في السفر نفسه (التكوين/ ١٢: ٧):

"וַיֵּרָא יְהוָה, אֶל-אַבְרָם, וַיֹּאמֶר, לְזַרְעֲךָ אֶתֵּן אֶת-הָאָרֶץ הַזֹּאת; וַיִּבֶן שָׁם מִזְבֵּחַ, לַיהוָה הַנִּרְאֶה אֵלָיו".

"وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أُعطي هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له".

ثم تذكر التوراة بعد ذلك في (سفر التكوين/ ١٥: ١٨): "בַּיּוֹם הַהוּא, כָּרַת יְהוָה אֶת-אַבְרָם בְּרִית לֵאמֹר: לְזַרְעֲךָ, נָתַתִּי אֶת-הָאָרֶץ הַזֹּאת, מִנְּהַר מִצְרַיִם, עַד-הַנָּהָר הַגָּדֹל נְהַר-פְּרָת.

"في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أُعطي هذه الأرض من نهر مصر (النيل) إلى النهر الكبير نهر الفرات".

ووفق ذلك- ربط اليهود الأرض المقدسة بالشعب المقدس، ولذلك يسمون الأرض الموعودة – أرض الرب. فقد جاء في (سفر هوشع/ ٩: ٣): "לֹא יֵשְׁבוּ, בְּאֶרֶץ יְהוָה; וְשָׁב אֶפְרַיִם מִצְרַיִם, וּבְאַשּׁוּר טָמֵא יֹאכֵלוּ".لا يسكنون في أرض الرب، بل يرجع أفرايم إلى مصر ويأكلون النجس في أشور.

ويسمونها أيضاً الأرض المختارة، فكما أنهم الشعب المختار فإن أرض إسرائيل هي الأرض المختارة التي أختارها الرب لسكناه وآثر بها اليهود واكتفى لنفسه بأورشليم التي يسكنها الرب. جاء في (سفر زكريا/٢: ١٠-١٢): רָנִּי וְשִׂמְחִי, בַּת-צִיּוֹן-כִּי הִנְנִי-בָא וְשָׁכַנְתִּי בְתוֹכֵךְ, נְאֻם-יְהוָה וְנִלְווּ גוֹיִם רַבִּים אֶל-יְהוָה בַּיּוֹם הַהוּא, וְהָיוּ לִי לְעָם; וְשָׁכַנְתִּי בְתוֹכֵךְ- וְיָדַעַתְּ, כִּי-יְהוָה צְבָאוֹת שְׁלָחַנִי אֵלַיִךְ וְנָחַל יְהוָה אֶת-יְהוּדָה חֶלְקוֹ, עַל אַדְמַת הַקֹּדֶשׁ؛

וּבְחַר עוֹד، בִּירוּשָׁלִָם. "ترنمي وافرحي يا بنت صهيون لأني هأنذا آتي وأسكن في وسطك يقول الرب. فيتصل أمم كثيرة بالرب في ذلك اليوم ويكونون لي شعباً فأسكن في وسطكِ فتعلمين أن رب الجنود قد أرسلني أليكِ والرب يرث يهوذا نصيبه في الأرض المقدسة ويختار أورشليم بعد".

وإيمانهم بأن الرب يسكن في أورشليم – ليس على ظاهرة بداهة؛ ولكنهم بذلك يعبرون عن مدى تشبثهم بأقدس ما لديهم في أرض إسرائيل الكبرى– وهي القدس، التي يساوي التفريط فيها التفريط في مسكن الرب.

ومن الجدير بالإشارة – إن استعمال كلمة إسرائيل مرادفاً للدولة عند اليهود تختلف عن كلمة إسرائيل مرادفاً للأرض؛ فإسرائيل الدولة هي ما يدخل تحت الحدود التي وصلوا أليها حتى الآن، أما إسرائيل الأرض – فهي تنطبق على كل ما يُسمَّي في كتبهم المقدسة أرض إسرائيل. فعندما يتحدث الساسة أو الحاخامات عن أرض إسرائيل فلا ينبغي فهم ذلك على أن المقصود به فقط دولة إسرائيل القائمة الآن، فأن هذا قد يراد به أحياناً وقد يراد به أحيان كثيرة أرض إسرائيل بمعناها التوراتي (من النيل إلى الفرات). فكل يهودي يؤمن بالتوراة والتلمود، يؤمن في الوقت نفسه بحديثهما عن أرض إسرائيل؛ وحديث التوراة عن إسرائيل ينصرف في الغالب إلى الأرض الموعودة بحدودها الواسعة. واليهود يفهمون ذلك على إن تلك الأرض ملك لهم سواء سكنوها أم لم يسكنوها، وسواء استطاعوا السيطرة عليها أم لم يستطيعوا.

إن المنزلة الدينية للأرض عند اليهود تكاد تصل إلى مستوى الفرائض والأركان. فالتلمود مثلاً يقول: "واجب على كل يهودي أن يعيش في أرض إسرائيل، وهذا الواجب يعلو على أي التزام آخر".

ويقول أيضاً: ((أرض إسرائيل طاهرة، ولا بد من دفن المتقين من بني إسرائيل فيها، وإن لم يتيسر ذلك يوضع في الكفن شيء من التراب المجلوب منها)).

ويضيف: "الذي يتمشى أربعة أذرع في أرض إسرائيل على يقين أنه من أبناء الآخرة".

فأعمال الآخرة لا يمكن، وفق التلمود، أن يقوم بها اليهود على الوجه المطلوب إلاّ في الأرض الموعودة، بل إن السكنى في أرض الميعاد تقوم مقام أعمال الآخرة. فقد جاء في (سفر اشعياء/ ٣٣: ٢٤): "וּבַל–יֹאמַר שָׁכֵן، חָלִיתִי; הָעָם הַיּוֹשֵׁב בָּהּ، נְשֻׂא עָוֹן". "ولا يقول الساكن أنا مرضت، الشعب الساكن فيها مغفور الآثم".

لقد أنعكس هذا المفهوم على الساسة اليهود ، كما سنرى لاحقاً، فقد عبر أول رئيس وزراء للدولة اليهودية عن هذا المعنى من زاوية أخرى فيقول: "من يعيش داخل أرض إسرائيل يمكن اعتباره مؤمناً أما المقيم خارجها فهو إنسان لا إله له".

أما مؤلف موسوعة الكتاب المقدس فقد ذهب إلى القول: "بأن لدى اليهود فكرة دقيقة عما هو داخل نطاق الأرض وعما هو خارجه، فقد كانت جغرافيتهم الإقليمية مؤسسة على مقياس يجري التدرج فيه من المنطقة الأقدس إلى الأقل قداسة."

في رأس هذا المقياس- قدس الأقداس في أورشليم، أما من الجهة الأخرى فمتى مس التراب في المناطق الواقعة خارج الأرض كان يعتبر منجساً.

إن التفسيرات القديمة والمعاصرة للنصوص القديمة تكشف بوضوح عن حدود تلك الأرض إذ يقول مؤلف الكتاب المقدس: "أن الأرض الموعود بها إبراهيم، الموصوفة في كتاب موسى، أي التوراة، تمتد من جبل هور إلى مدخل حماة، ومن نهر مصر العريش إلى النهر الكبير نهر الفرات، وأكثر هذه الأراضي كانت تحت سلطة النبي سليمان".

ومن الجدير بالذكر – أن هناك اعتقادات متشابهة عند اليهود والنصارى تخص كلاً منهم، تربط بين الأرض والشعب والزمن هناك. وهذا ناتج من تأثر الغرب المسيحي بالعنصر الديني اليهودي، الذي أقنع الغرب بحق اليهود الديني في أرض إسرائيل، الذي هو حق بشرتهم به التوراة؛ وإن أي تنكر لهذا الحق هو بمثابة تنكر للتوراة وجحود لتعاليم الأنبياء. فهذا الجنرال الإسرائيلي (موشي دايان) يقول: "أن على الذين يعارضون هذه السياسة- مراجعة موقفهم من الإنجيل والتوراة".

أذن- فاليهود والنصارى يؤمنون بأن الأرض المقدسة والشعب المقدس والزمن المقدس- قد أوشكوا جميعاً على الالتحام في أرض الميعاد التي تسمى أيضاً أرض المعاد، أي الزمن الأخير الذي يشهد الأحداث الأخيرة. فكلا الأمتين تؤمنان إن الفصول الكبرى في ملحمة نهاية التاريخ ستكون على هذه الأرض- أرض الميعاد أو أرض المعاد أو إسرائيل الكبرى.